الأهرام

المصدر : الاخبار

التاريخ : ١٠ يونية ٢٠٠٠

اذا انسحب السوريون.. هل تنشب حرب أهلية فى لبنان؟

بقلم:

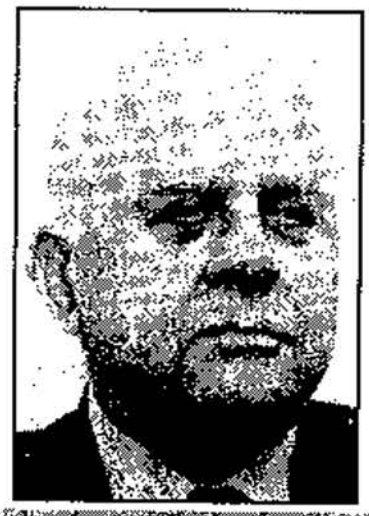

وليد أبو ظهر

رئيس تحرير مجلة «الوطن العربى» الصادرة فى باريس

أخلى الانسحاب الاسرائيلى من جنوب لبنان الساحة للفرح والسرور والفخر الوطنى، وخلق وضعا جديدا مغايرا تماما لما كان سائدا.. تحول شريط الموت الى جدار طيب، والى نقطة التقاء وتبادل واتصال بين فلسطينيى الداخل وبين اقاربهم ضيوف لبنان، وشهدت الأسلاك الشائكة مشاهد انسانية نادرة، أقارب يتقابلون لأول مرة فى حياتهم، ربما منذ النكبة عام ١٩٤٨، وتحولت الاسلاك الشائكة الى مزار سياحى، تنظم اليه الرحلات وتعقد حلقات الدبكة، والى وسيلة للتنفيس عن الغضب والقهر، عن طريق رجم الجانب الاسرائيلى بالحجارة.

وكل هذا جميل، ويكتب بحروف من ذهب فى سجل التاريخ البطولى، ولكن الانسحاب الاسرائيلى، ترك الساحة ايضا مؤهلة لتفريخ العشرات من الاسئلة القلقة، وكلها تدور حول المستقبل، وبعضها يحيط هذا المستقبل بالغيوم السوداء والتشكيك واثارة القلق، وبعض هذه الاسئلة تتناول نوايا سورية تجاه الانسحاب من لبنان، او متى ستنسحب؟..لكن بعض الاسئلة تتجه الى طرح صيغة اخرى وهى: ماذا سيحدث اذا ما انسحبت سورية من لبنان؟.. أو بصيغة اكثر تشاؤما من نوع: هل يؤدى الانسحاب السورى من لبنان الى عودة الحرب الاهلية؟!

انها أسئلة تفرض أن لبنان لم يتأهل بعد لمرحلة السلام الوطنى بدون مساعدة خارجية، ولذلك وبغض النظر عن الجدال الدائر حول الوجود السورى فى لبنان، أو دون أن يسفر طرح هذه القضية على أنه موقف من الوجود السورى فى لبنان، نستعرض المنافذ التى يمكن أن يتسلل منها الخطر الى الساحة اللبنانية، او اذا كانت فعلا موجودة أم انها من صنع الوهم والخيال.. او «خيالات مآتة» لأهداف أخرى.

لا أحد حتى الآن يفسر فعلا لماذا لبنان معرض لخطر عودة الحرب الأهلية، اذا ما انسحب السوريون من أراضيه، ولا أحد يعلن من اين سيأتى الخطر، من غزوات من المريخ أم من هجوم قادم من الفضاء الخارجى؟

لننظر بعين موضوعية الى الساحة اللبنانية اليوم، سنجد توافقا وطنيا قل نظيره فى تاريخ ما بعد الاستقلال، ونجد ارادة جماعية على طى صفحة الماضى.. لانها صفحة سوداء يجب أن تزول من الذاكرة الوطنية، او أن تبقى فى الذاكرة عبرة لمأساة يجب أن لاتتكرر.

قبل الانسحاب الاسرائيلى حظيت المقاومة الوطنية باجماع اللبنانيين، وبدعم لامحدود من القيادة السياسية رئيسا وحكومة، ومساندة غير مشروطة من الجيش، وقد وصفها الأمين العام لـ«حزب الله» الشيخ حسن نصر الله نفسه بأنها مقاومة الشعب ومقاومة الدولة.. وقد تكرس هذا الوضع الفريد مع وصول العماد إميل لحود الى رئاسة الجمهورية، فاعتبر رسميا ان المقاومة الوطنية هى القوة الضاربة للبنان الوطن والدولة ضد الاحتلال الاسرائيلى.

وكان البعض يتخوف بعد زوال الاحتلال، من أن ينجم فراغ امنى هو المدخل لاعمال ثأرية وانتقامية.. ولكن ما حدث اذهل العالم كله، وأحبط آمال الاسرائيليين فقد تم الانسحاب بسلام، ولم تقع عملية انتقامية واحدة، بل ان «حزب الله» والدولة تعاونا فى ايصال الخدمات المدنية، لتخفيف الأعباء عن سكان الشريط العائد الى حضن الوطن.

والوحدة الوطنية لاخوف عليها اليوم، فمنذ ان تولى الرئيس لحود السلطة، والنهج الواضح انه لا فرق بين طائفة وطائفة ومذهب ومذهب ومنطقة ومنطقة، واللبنانيون أنفسهم تعلموا الدرس بعد ان دفعوا ثمنا غاليا، درس كلفهم اكثر من ٢٠٠ الف قتيل، ودمار لاتحصى تكاليفه، وتأخر عن مواكبة الزمن لايقدر بمال.. من قلب المأساة ولدت قناعة جماعية بأنه لاحرب بعد اليوم، وانه لاخلاف بعد اليوم على اساسيات الوطن وخياراته.

ولايعنى هذا أن اللبنانيين كلهم صاروا لونا واحدا، أو أن المصالح الفئوية قد انتفت، أو أن الزعماء والسياسيين صاروا من جنس الملائكة، اللبنانيون يختلفون، لكنهم يتحاورون ويتفقون أو ترضخ الاقلية لرأى الاكثرية دون أن تلغى خصوصيتها.. بل ان الشيخ حسن نصر الله نفسه، أكد أن «حزب الله» هو من النسيج السياسى اللبنانى، ويشارك فى اللعبة السياسية وفق قواعدها المتعارف عليها، ولكن باخلاقيات الحزب.

اذن داخليا لافتنة بعد اليوم، وليس مسموحا لاى طرف ان يحمل سلاح الفتنة، لأن سلاحه فى ذلك الوقت يكون

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

موجها الى الوطن كله، وكل الوطن سيقف بوجهه.

المواقف السياسية لن تتمخض عن فتنة، ولا المطالب الاجتماعية ستتمخض عن فتنة.. من الطبيعي أن لبنان يعاني من مشاكل اجتماعية وصعوبات اقتصادية، وطبيعي أن قطاعا كبيرا من اللبنانيين يشعر بوطأة الحاجة، لكن ذلك لن ينعكس على الاستقرار الامني، وخاصة ان الاستغلال الخارجي للازمات الداخلية لن يجدي بعد الآن، ولأن الاطراف الاقليمية لم تعد بحاجة الى اشعال الساحة اللبنانية، لاشغال الاهتمام العالمي او لتحقيق مصالح ذاتية، ولأن عهد الحرب الباردة قد انتهى، ولم يعد لبنان ساحة لها، وهو كان احد ابرز ضحاياها في العالم.

واضافة لذلك لمس اللبنانيون لمس اليد مصير العمالة للأجنبي وخيانة الوطن.. رأوا ميليشيا العميل لحد وهي تتهاوى، عندما رفع عنها الغطاء الاسرائيلي، وتحول غناصرها الى لاجئين في اسرائيل يعيشون على التبرعات، بحيث فضل بعضهم العودة الى حضن الوطن، متقبلين العقاب والوقوف امام العدالة على ذل الاستجداء على ابواب الاسرائيليين.

أدرك اللبنانيون أن العمالة للخارج أي خارج ثمنها باهظ وانه ما أن ينحسر الوجود الاجنبي حتى ينكشف عملاؤه ويتساقطون معدومي الحيلة، تحاصرهم الكراهية من كل مكان.. ولا اعتقد أن لبنانيا واحدا في راسه ذرة من العقل، ولا أقول ان في قلبه ذرة من حب الوطن، يقبل بعد الآن ان يستخدمه الاجنبي كمخلب قط لاقتناص المصالح على حساب وطنه وبني وطنه.

من أين تأتي الفتنة؟ هل تأتي من الباب الفلسطيني؟ بصراحة لا اعتقد بذلك على الاطلاق، فالمخيمات الفلسطينية رغم وجود اسلحة فيها لم تعد قادرة بشكل من الاشكال على القيام بأي عمل يمس بأمن البلد، هذا اذا افترضنا، وهذا احتمال بعيد، وجود نية لديهم بذلك.

عندما بدأت الحرب الاهلية في لبنان، كان أحد أسبابها الوجود الفلسطيني المسلح، واحد اطرافها الرئيسية الوجود الفلسطيني المسلح، واحد أهدافها الرئيسية، نزع البندقية الفلسطينية، وفي تلك الأيام السوداء، كانت المقاومة الفلسطينية تعتبر جيش المسلمين، وفي الجهة الأخرى من خندق المواجهة يقف معظم المسيحيين وطليعتهم الكتائب او القوات اللبنانيةومعهم الجيش.

اما اليوم فأستبعد أن يقف لبناني واحد مع بندقية تسدد من المخيمات باتجاه وطنه وأمن وطنه.. ومرة ثانية أقول «اذا».. وهي فرضية مستبعدة.. والادراج الفلسطينية لعودة الوعي اللبناني بأهمية السلام الوطني، تجعل أي طرف فلسطيني يفكر الف مرة قبل أن يوجه طلقة واحدة ضد أمن لبنان ولكن الحقيقة الرئيسية هي ان المخيمات الفلسطينية لم تعد مصدر خطر.. والحقيقة الثابتة هي أن الرئيس ياسر عرفات هو صاحب الكلمة الاولى في هذه المخيمات، وهو قد اختار طريق السلام وأسلوب التفاوض للوصول الى اقصى ما يمكن من الحقوق الفلسطينية.. والظروف الجديدة والاتجاهات الدولية، أخرجت الى حد كبير البندقية الفلسطينية من المعادلة، وأكثر من ذلك فان لبنان يساند اللاجئين الفلسطينيين في تمسكهم بحق العودة الذي هو الهدف النهائي لنضالهم المرير والعنيد والطويل.

وها هو رئيس الحكومة د.سليم الحص يؤكد في الاسبوع الماضي ان لبنان متمسك بالمشاركة في المفاوضات التي ستحدد مصير اللاجئين،لأنه يستضيف ٤٠٠ الف فلسطيني، ويعتبر نفسه يتحمل مسئولية الدفاع عن حقهم في العودة.

واذا كانت الحركات المعارضة لخط التحرك التفاوضي- كالجبهة الديمقراطية او الشعبية أو حماس أو الجهاد- تملك القدرة على التحرك في المخيمات، فانها لاتملك حرية التحرك، لأن ارتباطها العضوي بسورية، يجعلها خاضعة للقرار السوري، ودمشق نفسها انحازت الى خيار السلام والى اسلوب التفاوض للوصول اليه، وهي الى ذلك مشغولة اليوم باعادة ترتيب البيت الداخلي وتمهيد الارضية لعملية انتقال السلطة، وبالتالي فانها ستكون عامل تهدئة لاتحريض في المنطقة ككل، خاصة ان الرسائل التي وصلت الى دمشق واضحة وسريعة، وهي ان الرد سيكون مباشرة وبعنف.

ومن كل ذلك أسأل وألح في السؤال: لماذا ستنشب حرب اهلية اذا انسحب السوريون من لبنان؟.. من يملك جوابا فليفسره لي، غير أنني شخصيا، وقد عايشت أزمة لبنان وحروبه على مدى ٣٤ عاما واعتقد انني اعرف أدق تفاصيلها، لا املك جوابا.

ولكن تبقى نقطة معلقة بين الفرح الغامر بالانسحاب، والتشاؤم المصطنع باحتمال المستقبل، تخرج من بين طيات تصريح للرئيس الحص، قال فيه أن اسرائيل انسحبت من لبنان دون أن يرفرف علمها على مبنى سفارتها في بيروت.. وقد رأى البعض في هذا التصريح تلميحا معينا، وانني اعتبر أن هذا التصريح حمال أوجه، لكنه لا يتضمن ايماءات معينة. فالدكتور الحص رجل سياسة ودبلوماسية وكياسة، وهو رجل مثقف ومفكر وعلى خلق، وهو الى ذلك مدرك للوضع الاقليمي بشكل جيد، ولا يتطرق الشك الى اطلاقا انه بالتقييم العلمي يعرف قدر مصر وأهميتها ودورها لوضع السلام برمته، رغم بعض الضغوط التي تريد اثبات مواقف على حساب مواقف أخرى.

والرئيس الحص نفسه كان في طليعة مستقبلي الرئيس محمد حسني مبارك في زيارته الشهيرة لبيروت، وهو لمس لمس اليد أثر هذه الزيارة التي منحت للبنان عمقا عربيا شاملا لم تتوافر له من قبل، وليس من قبيل المبالغة القول أن هذه الزيارة هي التي اقنعت اسرائيل بالتعجيل بسحب قواتها من جنوب لبنان، بل ان الحس الشعبي اللبناني ادرك بالفطرة أهمية زيارة الرئيس مبارك، فتحول بأسه الى تفاؤل واستبشر خيرا. وهذا ما حصل بالفعل.

ولنتحدث بصورة واقعية، فمصر اليوم بقيادة مبارك هي محور السلام في الشرق الاوسط ودورها الذي اكتسبته بقواها الذاتية وبالاستراتيجية الحكيمة والمستنيرة للرئيس مبارك، هو الدور المحرك للسلام والمساعد في التوصل اليه، وهو في الوقت نفسه صمام الأمان لاستعادة الحقوق القومية كاملة غير منقوصة.

وبكل موضوعية، اذا ما تطلعنا الى المسار الفلسطيني، للاحظنا أن مصر، ومصر فقط هي الورقة القوية التي يستند اليها الطرف الفلسطيني على طاولة المفاوضات الشاقة والطويلة والمراوغة.

ومن هنا، لا نعتقد ان لبنانيا واحدا إلا ويتطلع باتجاه القاهرة، لتستمر مسيرته نحو الأمن والأمان، والى أن يتحقق السلام النهائي على جميع المسارات بما فيها اللبناني والسوري.

ولايختلف اثنان ايضا على أن اهمية الدور المصري تتضاعف اليوم، فالولايات المتحدة تتجه الى مرحلة من الانكفاء على النفس، فواشنطن بكل قواها ودوائرها مشغولة تماما بانتخابات الرئاسة المقبلة، وتوظيف كل وقتها للسباق نحو البيت الابيض، وقد اعتدنا في مثل هذه الاحداث أن الادارة الامريكية تحد من نشاطها الخارجي، وتفقد حماسها لمعالجة قضايا العالم، مما سينعكس حتما على الشرق الاوسط.

الشرق الأوسط مرشح في المرحلة القريبة اذن ان يعاني من أنسحاب الاهتمام الامريكي، وبالتالي فقدان قوة الدفع لعملية السلام، فتدخل مرحلة جمود قد تستمر سنتين، مع ما يحمل ذلك في طياته من عوامل.. خطيرة ولكن هل الوضع سيكون كذلك؟

قطعا لا. فالمنطقة الشرق أوسطية تتمتع بقوة دفع اقليمية ذاتية، هي قوة مصر التي تملك من المؤهلات والقدرات التي تتيح لها ان تواصل عملية السلام، وأن تحافظ على جو الاستقرار والسلام السائد حاليا، وهي قوة ايضا تحظى باحترام العالم وثقته، بل ان هناك ما يمكن تسميته بتخويل دولي لمصر في قيادة عملية السلام.. ولاشك ان مصراكتسبت هذه الثقة نتيجة عملية بناء طويلة وشاقة، اكدت فيها الاستراتيجية المصرية، التي يقودها الرئيس مبارك، مصداقيتها وموضوعيتها وقدرتها على ابتكار المخارج المقبولة لأزمات تكاد تكون مستعصية.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ولعل هذه الحقيقة تتأكد مرة إضافية من خلال اللقاء الذى تم بين وزير الخارجية السورى فاروق الشرع، ووزيرة الخارجية الامريكية مادلين اولبرايت فى القاهرة، فهو لقاء يكشف عن دور الرئيس مبارك الشخصى لازالة البرود المحيط بالمسار السورى، وشق الطريق لاستئناف المفاوضات على هذا المسار أسوة بالمسارات الاخرى منطلقا من حرصه على الحقوق الثابتة لسورية فى اراضيها.

ومن هنا يمكن ان نتأكد ان الشرق الاوسط لن يتأثر من انسحاب الاهتمام الامريكى، كما أننا متأكدون من ان لبنان سيواصل مسيرة الاستقرار، فصمام الامان موجود، هو من قومنا وأهلنا ومتطقتنا، وهو حريص علينا حرصه على وطنه مصر.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية